وما دام عندنا قوة مائية عظيمة في اصوان وحاجتنا الى السماد الكيماوي شديدة جداً فلا عذر للقطر المصري اذا لم يبادر الى استخدام هذه القوة لعمل السيانميد او غيره من مركبات النتروجين اللازمة للزراعة

اما نترات الصودا التي كانت ترد من بلاد شيلي فلا يحتمل ان يدوم ورودها زماناً طويلاً لان مقدارها محدود هنا وقد قدّروا انهُ لا يزيد على مئتي مليون طن استخرج منها لعمل البارود ٢٠٠٠٠٠٠ سنة ١٩١٤ و ٢٩٤٠٠٠٠٠ من نوفمبر سنة ١٩١٥ الى نوفمبر سنة ١٩١٦ والمظنون انها تنفد كلها في نحو خمسين سنة . وسواء نفدت او لم تنفد وسواء وجدت النترات الطبيعية في امكنة اخرى او لم توجد فما دام في القطر المصري قوة مائية كافية لاستخراج النتروجين من الهواء وعمل سماد كيماوي رخيص منهُ فليس من الحكمة التهاون في استخدامها

في بادية الشام

(٧) سكاكة

سكاكة . كتب لي الامير نواف كتاب وصيتهِ للسيد مهدي النجفي كبير تجار الشيعة في سكاكة وذلك ليرسلني مع القافلة الذاهبة لاشتراء الثمن من العراق كما ارسى الامير بي جزي خيراً حاكم سكاكة المعيّن اليها واسمهُ العثيان احد افراد آل الشعلان وهو شاب . ويوم السفر ودعت سمو الامير وسرنا صباحاً واتانا رديف العثيان على ذلولهِ وكان معنا بعض اعيان سكاكة ولم نبلغ حي سكاكة الاّ قبيل العصر بعد ان جزنا بين قرية قارة وكان قديماً يقال لها ذو القارة ايضاً و بين قرية الظويرة وكانها تصغير طور لم يرد اسمها بين القريّات التي ذكرها السكوني

وسكاكة بضم السين واقعة شمال الجوف وهي بسيط من الارض في جوف منخفض محاط كدومة الجندل بالروابي والآكام ولذلك كانت طيبة المناخ عذبة واسعة الطرق كثيرة الحدائق النخلية . وبعد ان امخنا رواحل في حصن الامارة توافد اهل البلدة للتسليم على شيخهم الجديد ومن جملة المسلّمين كان السيد مهدي فعرفني بهِ العثيان واوصاهُ بي واعطيتهُ رسالة الوصية ثم انتقلت الى دارهِ و بقيت شهر ربيع الاول مكرماً بضيافتهِ وكأني من آل بيتهِ و بهِ تعرفت بسائر اخواننا العرب من تجار الشيعة الالى اكرموني بارك الله بهم جداً .

وعثرت لديهم على نسخة من ديوان شاعر قريش الشريف الرضي فكنت اقرأ لهم المرقصات من قصائده العصماء وقد ترنمت في رحلتي بجل قصائد هذا الديوان النفيس . وطوّلاء التجار في سكاكة جنان من النخيل وبينهم تاجر سنّي قبيسي وكان السكاكيون يصلون الجمعة في ميدان متسع من الارض لان مسجدهم كان يومئذٍ فكان الخطيب يخطبهم واقفاً بلا منبر وهو لا يحسن العربية فيلحن كثيراً وهو مثل خطيب دومة — كلاهما لا يذكر السلطان التركي في خطبته ولا يدعو له ولا يعترف بخلافته وهما يدعوان الله بان يصلح الاحوال ويحسن المآل

واختلف مرة قاضي سكاكة وقاضي الجوف في مسئلة شرعية تتعلق بالفرائض فاجتمعا في الجوف وانتدبني الامير نوّاف لاكون حكماً بينهما . واكثر عرب القريات حنابلة يعظمون الشيخ محمد بن عبد الوهاب الحنبلي جدًّا فهم لذلك اقرب الى الفطرة وابعد عن الخرافات . وفي سكاكة طائفة كبيرة من سكانها يقال لهم القرشا نسبةً الى قريش كما يقال وهذا لا يبعد لان قبيلة قريش تفرقت ايام الفتوح في الآفاق

والسكاكيون اسلم اجساماً واعظم اقواماً من الدوميين فترى فيهم الوجوه المقمرة الصبيحة والابدان الضخمة الصحيحة والبدويات الرعابيب يحسن غير محجوب . وبما ان سكاكة غير مسورة ولا حصينة كانت عرضة للغزاة والمهاجمين فاتخذ كل سكاكي بيتهُ حصناً حفر فيهِ بئرهُ وملأهُ بالمؤونة والذخيرة فحق فيهِ المثل الانكليزي القائل : « بيت الانكليزي قلعتهُ » وبيوتهم مشيدة باللبن مدعومة بخشب الاثل المتين الوارد ذكرهُ في شعر العرب كثيراً وقد شاهدتهُ لاول مرة في دومة الجندل وسكاكة وارتفاع الشجرة بالغ نحو اربعة امتار وهي تحكي شجرة الصرفاء الاّ ان قطر جذعها يبلغ نحو عشرين سنتيمتراً

عودٌ في السيد مهدي شرب القهوة العشية صباحاً قبل تناول طعام الفطور وقد صرت التذ بها جدًّا حتى قلت في وصفها ذات صباح هذه الابيات :

كل مرٍّ من الشراب كريه ... غير بنت الدلال[1] والخماسِ
قهوة توقظ السكارى ولا تسـ ... ـكرُ يقظى كقهوة الجلاّسِ
تلك بنت الدلال تحيي عقولاً ... غير بنت الدنان تردي بكاسِ
فاتركوا الخمر ان تكونوا رجالاً ... كي تعيشوا في الناس مثل الناسِ

(١) الدلال في لغة البدو الهاريق خماس تعلى القهوة فيها وتصنع في العراق والشام والخماس وزان مفتاح من خمس اللحم قلاهُ يحاكي المقلاة المتخذة من الحديد

وفي اوائل ربيع الآخر عزمت مع الركب الصليبي على السفر وقد قدم هؤلاء الصلبة بابلهم الى سكاكة اواخر ربيع الاول لاشتراء التمر ثم يعودون لمنازلهم في البادية ومنها يذهبون الى العراق لينقلوا منها احمال الثمن الى سكاكة والجوف وكان كبير الركب يقال له بريكان فاوصاه بي السيد مهدي الايصاء كلهُ وشارطهُ ان يوصلني الى الشفانية باجرة ثلاثة مجيديات وقد ابثت بين ظهرانيهم حتى بلغت الفرات نحو شهر لانهم مكثوا في منازلهم مدة اسبوعين حتى تكامل الركب واستعدت العير للاعراق ولقد تفاءلت باسم بريكان خيراً وقلت ابرك طالع وايمن طائر ان شاء الله

زودني السيد مهدي بالتمن والتمر وودعني واقربائهُ الى ظاهر سكاكة ثم ركبت بعيري وسرنا مشرقين وبعد فرسخ من المسافة لاقينا السكاكيات يحتطبن من اشجار الغضا الكاسية الرمال والتلال فعجبت جد العجب لنشاط حمالات الحطب وقوة بنات العرب ولم تزل نواصل السير والسرى ونغالب النصب والكرى حتى بلغنا في المرحلة الثالثة مخيم الصلبة او الصُلَيب حيث اهل العير تزول

(الصلبة) يلفظها البدو بسكون الصاد وفتح اللام والمجمة وقد رأيت للفاضل سليمان افندي البستاني مقالة عن البدو مفيدة في المجلد الثاني عشر من المقتطف قسم فيها البدو الى ثلاثة اقسام : البدو كالرولة وشمر ونصف البدو وهم الذين « ينزلون على مجاري الانهار الكبيرة يعيشون في بيوتهم الشعرية او اكواخهم المصنوعة من القصب وجريد النخل والبردي يزرعون ما جاورهم من الارض ويظلون فيها حتى اذا اجدبت المنابت او طابت خواطرهم منها هجروها الى منازل أُخرى وعاودوها بعد حين ومنهم قبائل المنتفق على الفرات وبنو اسد قوم الاخطل وبنولام الذين ينتمي بعضهم الى الدروز على دجلة وبنو تميم والمعدان على شط العرب وبنو كعب على كارون في بلاد فارس »

وذكر ان الصلبة هم بدو البدو وانهم اوربيو الاصل من دم افرنجي قال : « ولا اقرب الى الظن من انهم من بقايا الصليبيين الذين تشتتوا بعد ان مزقت شملهم دولة الايوبيين والمماليك والتتر فالظاهر ان طائفة منهم التجأت الى بادية الشام وامتزجت باهاليها وجنسها الزمان بجنسها وعلى ذلك ادلة منها :

اولاً كثرة العيون الزرق فيهم بخلاف العرب

ثانياً امتلاء الوجه ووفرة الشعر فيه

ثالثاً اذا سألتهم عن اجدادهم قالوا الفرنك

رابعاً عند انتمائهم الى مذهب مخصوص

خامساً ولئن كان الزمان فعل فيهم فعلاً قاطعاً فهم لا يزالون اقل مهرة من سوام

سادساً اختلاف هيئة معيشتهم عن سائر قبائل البدو»

وقال: «ومن غريب ما شهدتهُ فيهم مباينة بينة في منطقهم وارتجاء كثير في لفظهم وهو اشبه بلفظ اهالي جنوبي لبنان ولهم تصبيرات لا يعرفها البدو وتعرفها في سورية ولبنان فمن اصطلاحهم في التحبب ان يقولوا «يا حزني» وفي التقرب ان يقولوا «يا عيني» وفي الاستنجاد «دخلك و يابي و ياخي وكلها غير مستعمل بهذا المعنى على هذا الوضع عند عرب البادية» الى ان قال: «لا يعتمدون على اقتناء الابل والخيل بل عندهم الاتن ينقلون عليها بيوتهم اذا ارادوا الرحيل» اه

وحبا بخدمة العلم اذكر ما شاهدتهُ وعاينتهُ عن الصلبة فقد اقمت بين ظهرانيهم في البادية شهراً كريتاً لم يلفت نظري كثرة العيون الزرق فيهم ولا وفرة الشعر ورأيت منهم ممتلئ الوجه وخفيفهُ وامتلاء الوجه كثير في عرب السرحان وبني صخر والقرى البدوية كدومة الجندل وسكاكة وعلمت انهم لا يعرفون اجدادهم فتارة يقولون الفرنك واخرى الانقريز اي الانكليز وسائر العرب يلقبهم بذلك ذمًّا واما كونهم لا ينتمون الى مذهب مخصوص فاكثر قبائل البدو الاصيلين كذلك فالعنزي او الرولي مثلاً لم يسمع احدهما باسم الشافعي او الحنفي ولا بمالك وابن حنبل ولو سألت بدويًّا او احد الصلبة عن دينهِ لاجابك الله ومحمد رسول الله فلا يعرف البدوي الاتقان لامينهِ ولا في دينهِ فلا يحسن الصلاة ولا التيمم او الوضوء وان حفظ شيئًا من سور القرآن القصيرة فيحفظهُ بغير ما انزل مصحفًا او محرفًا مع عدم مراعاة الترتيب في الآيات

وانوان الصلبة كألوان سائر البدو وبينهم الاسمر والغارب بلونهِ الى البياض ولا يختلفون بهيئة معيشتهم عن سائر قبائل البدو لا في طعامهم وشرابهم ولا في محض الزقاق وخبز الرقاق ولم يرثوا من اجدادهم الاوربيين ولا عادة واحدة فانهم يختتنون ويتزوجون حسب عوائد البدو و يطلقون و يعددون بين الزوجات. واعرف أن بريكان الصلبي الذي كنت ضيفهُ كانت لهُ زوجتان ورأيتهما. ولا امتياز للصلبة عن غيرهم من قبائل البادية الاَّ بصيد الماء والغزلان يبتارق طويلة من اطراف الاعشق واعتادوا لوفرة جلود الغزلان لديهم ان يخيطوا من الجلود جلاليب «جلابيات» يلبسونها فتقيهم حمارة القيظ وصبارة

الشتاء ويتخذون من جلود الماعز نمالاً متينة جداً ابتعت منها نعلاً بريال مجيدي . وقد علمت من البدو ان لكل قبيلة نعجة خاصة بها وان البدو يعرفون الصلبة بلهجتهم الفارقة كما يعرفون الرولي والشمري كليهما بلهجته ويميزون بها بين الصخري والسرحاني والشراري كما يميز الحضري بين الشامية والمصرية والمغربية

وهم موزعون في كل بادية ويقيمون زرافات قليلة في اماكن مختلفة الا انهم كثيرون لم يخص عددهم بالتحقيق . واما قول الاستاذ : « لا يعتمدون على اقتناء الابل والخيل بل عندهم الاتن يتقلون عليها بيوتهم اذا ارادوا الرحيل » فاظن انهُ لا يريد بهذه الجملة سوى الصلبة النازلين في الشامية قرب الفرات والا فان الصلبة الذين يجتابون اجواز الفلا الى دومة الجندل ونجد يقتنون الابل الجيدة وينتفعون بها انتفاع سائر البدو . ولا ازال اذكر اسم بعيري الذي امتطيتهُ من سكاكة الى العراق وهو جنيف الآتي ذكرهُ فانهُ بعير صليبي . وهم كما يقول الاستاذ : « حيث حلوا في مأمن من غزوات البدو لانهم في ذمار الجميع » وهذا صحيح بعد ان يدفعوا الخوة الى الزولة وشمر وغوة احدهم السنوية تختلف اختلاف فقر الصلبي وغناه ومعدلها ريال . وهذه الضريبة يشاركهم في دفعها الى القبائل القوية كل قبيلة مغلوبة على امرها كالشرارات وهتيم . فلو اتفق ان صليبياً قابلهُ في خلعته عنزيٌّ واراد استلاب ما معهُ يقول لهُ : « ترى خَوِي حمدان » فاذا كان عنزيًّا مثلهُ تركهُ العنزي الغازي لعلمهِ بانهُ دفع خوتهُ لحمدان المكلف بحمايته ورد استلابه ودفع كل اعتداء عنهُ

من عرف طبائع البدو لا يسلم بان شرذمة من الصليبيين تلوذ ببادية الشام فراراً من فتك العرب الذائدين عن حياضهم وهي غريبة عن البادية جاهلة بمفاوزها ومظانها ولو فعلوا ذلك لمات هؤلاء الصليبيون جوعاً وعطشاً ان سطوا من اعتداء البدو والايقاع بهم لانهم يبعدون عن البدو بلغتهم وعاداتهم ودينهم . ولو اظهروا الاسلام في البادية لاظهروهُ في مدن سورية الحضرية وخلصوا من عجهية البادية وشظف العيش فيها . فيحتمل انهم ظلفاء موالي الايوبيين او احدى الدول العربية جموا بعد الضيق اشتاتهم في بادية الشام وغيرها وعاشوا عيشة القبائل الرحل وقد كان لبني امية وبني العباس من الموالي خلق كثير . ولا تزال في ايامنا هذه قبيلة كبيرة مشهورة بالجمال نازلة بين حماة وحلب يقال لها « الموالي »

للرحلة صلة عز الدين آل علم الدين